بين بنائين

فرغت في هذا الصيف من بنائين، الأول أنفقت فيه فكري، والثاني صرفت فيه مالي، أما البناء الأول فهو كتاب دراسة الأغاني، فقد كنت في حر العقل، أستعمل فيه من الكلام ما أريد، فأقدم وأؤخر من العبارات ما أشاء، ولا مانع يمنعني من هذا التقديم والتأخير، أحكم فيه على خلفاء وأمراء وعمال بحسب ما يوحيه إلي الفكر والشعور والذوق، أرى المساوئ فأنبه عليها، وأرى المحاسن فأشير إليها، فأشعر بأني أتمتع من حرية لا يَعْدِلُها شيء من بهجة الدنيا، أشعر بأني آدمي من لحم ودم وفكر وروح، فأذوق لذة في هذا الشعور دونها لذات الحياة بأجمعها، وسواء عليّ أكنت مصيباً في حكمي أم كنت مخطئاً، وحسبي أني حرٌّ في هذا الحكم، لا أنقاد إلى مشيئة أحد، ولا تتسلط عَليَّ إرادة أحد.

وأما البناء الثاني فهو كوخ صغير في بلودان، بنيته ولم يكن لي في بنائه إرادة ولا مشيئة، صوره المهندس وفق قواعد هندسته، فإذا أردت أن أُغيّر وضعاً من أوضاعه تضعضعت قواعد هذه الهندسة كلها، وقد كنت رهين إرادة البنّاء والنّجّار والدهّان والنحّات والبلاّط وغيرهم من الذين اشتركوا في البنيان، فإذا قلت للبنّاء:

اعمل كذا أو لا تعمل كذا اعترض عليّ، وإذا قلت للنجّار أريد أن تكون الخزانة على هذا الشكل أو الباب على هذا الطرز عمل ما يريد لا ما أريد، وإذا طلبت إلى الدهان أن يدهن من هذا اللون أو هذا اللون قال لي إن هذا اللون لا يألف اللون الآخر، وإذا رجوت البلاط أن يركب البلاط على وجه من الوجوه احتج على هذا التركيب، والخلاصة قضيت خمسة أشهر في البناء وأنفقت فيه ما أنفقت، وما أذكر أنه مرَّ يوم من أيام هذه الأشهر دون تعب فكر أو هياج عصب أو اضطراب بال.

وبعد أن فرغت من هذين البنائين قلت في نفسي: أيهما الخالد؟ أما الكوخ فحسبه أن تنثر السماء عليه قليلاً من الثلج أو كثيراً من المطر، أو أن يضغطه الجبل الممتد من ورائه ضغطاً عنيفاً حتى يزحل من مكانه، ويصير على نحو ما قال أحد الظرفاء إلى بحيرة العتيبة، وأما كتاب دراسة الأغاني فلا خوف عليه من ثلج أو مطر أو جبل فقد يكون صاحبه مخطئاً فيه أو مصيباً، وقد يعترض عليه المعترضون أو ينقده الناقدون أو يستقبحه المستقبحون، ولكنه يظل بناء فكرياً أقوى من الثلج ومن المطر، ذاق صاحبه فيه بعض الحريّة وبعض الاستقلال، وسيذوق الناقدون في نقده وفي نقد أمثاله من الكتب كثيراً من الحرية وكثيراً من الاستقلال.

هذا هو الفرق بين حياة مادية لا يشعر فيها الإنسان بشيء من الحرية وبين حياة فكرية لا يحرم فيها الإنسان شيئاً من هذه الحرية،

فالحياة التي يستطيع فيها المرء أن يقول مايشاء وأن يشعر بما يشاء وأن يذوق ما يريد وأن ينبه على ما يحب من المحاسن وأن يشير إلى ما يحب من المساوئ، إنما هي حياة الآدميين على حقيقتها، أما هذه الحضارة القائمة على النفط والقطن والحديد وأشباه هذا كله من أدواتها الحديثة فلا قيمة لها بالنسبة إلى الحياة الفكرية إذا لم يكن للمرء فيها شعور حر وفكر حر وإرادة حرة.

النقاد

١٩٥١/١٠/٨

الورد يموت ... والشوك يعيش

رجعت في هذا الصباح إلى دفاتري العتيقة لأعيش في تضاعيف سطورها ساعة من الزمن، فوجدت في جملة هذه الدفاتر غلافاً كتبت عليه هذه العبارة: آخر يوميات لم تنشر. وقصة هذه اليوميات أني كنت أنشر في جريدة «الأيام» في دمشق خواطر مختلفة في كل أسبوع، لقد عشنا مع «الأيام» وعاشت معنا أكثر من ثلاثين سنة، كنت أنشر خواطري كل أحد، ولماذا لم تنشر آخر يومياتي؟..

«لم ينشرح صدري للكتابة في هذا الأسبوع، والسبب في هذا الانقباض تقلب الجو في القرية التي أعيش فيها، فمن صحو يدوم بضع دقائق إلى غيم يطبق أعنان السماء، ومن مطر خفيف إلى ثلج يغطي الجبال، وإلى جنب هذا كله آثار ذئب دفعه الجوع من الجبال إلى حديقة الدار، وقد أدخل تقلب الجو الغم على قلبي، فجفت القريحة، وإذا المرء لم ينشرح صدره للكتابة لزمه أن يطرح القلم من يده، فإن الذي يجيء عفو الخاطر خير من الذي يجيء بعد الجهد».

لما فرغت اليوم من قراءة هذا المطلع قلت في نفسي: أي انشراح بعد مناظر من هذا النمط: غيم ومطر وثلج وذئاب! ثم قابلت بين

حالة الجو في تلك الساعة وبين حالته في الساعة التي أكتب فيها الآن فوجدت اختلافاً عظيماً في الحالتين، في هذه الساعة أضرب بعيني في حديقة الدار فلا أرى إلا جوّاً معتدلاً، لا شدة حرّ ولا شدة برد، سماء صافية ليس فيها لطخ من غيم، وشحارير تغرِّد على الشجر، والفرق على ما أظن بعيد بين تغريد الشحارير وعواء الذئب، إني في آخر الصيف وفي أول الخريف، كل شيء هادئ في القرية التي أعيش فيها، وعلى الرغم من محاسن الجو وهدوء القرية لا أنعم بالانشراح، فالنفس في هذا الصباح تعيش في مثل الانقباض الذي كانت عليه في صباحها القديم، وما أظن أنّي وحدي على مثل هذه الحال، فالذين يملأ الانقباض صدورهم غير قليلين، والإفاضة في هذه الأسرار يطول أمرها، فخير لي أن لا أزعج القارئ الكريم بأكثر مما أزعجته به، خير لي أن آخذ بيده إلى الموضوع الذي قد يلهبه أو يتعبه، أما الموضوع فهو نفسه الذي جعلت عنوانه من أشهر: الورد يموت والشوك يعيش، فلم أغير فيه شيئاً، قلت بعد المقدمة التي صدَّرْتُ بها هذا المقال:

لقد طرحت القلم من يدي وعكفت على كتاب فيه منتخبات من الأدب الإنكليزي، فوقع نظري على ستة أبيات لم يُذكر في الكتاب اسم صاحبها، فلا أعرف شيئاً من منزلته في أدب قومه، إلا أن هذه الأبيات وقعت مني موقعاً حسناً لخفتها على القلب، فما كدت أملأ ذهني منها حتى نشطت للكتابة، وهذه ترجمة الأبيات:

شوك يعيش.. وورد يموت!

لماذا تذهب أفراحنا على حين تغمر الأحزان قلوبنا؟.

لا أدري السبب في ذلك.

تقول الطبيعة للرجل: أطع، فيطيع الرجل!

إني أرى الشوك يعيش والورد يموت ولا أعرف السر في ذلك!

لسنا بمحضر شعر في قوة شعر المتنبي، ونظرائه من فحول الشعراء، غير أنا بمحضر شعر لا يخلو من رقة وسهولة، لا شك في أن الشاعر يرمز بالورد وبالشوك إلى أمور ثانية، فقد يجوز أنه أراد بالورد أفراحنا وبالشوق أحزاننا، وقد يجوز أنه أراد أمراً آخر، وفي كل حال المعنى في قلب الشاعر!

وإذا كان هذا الشاعر يجهل السبب الذي من أجله يموت الورد ويعيش الشوك فلست أرسخ منه في معرفة هذا السبب، لست من علماء النبات حتى أحيط بسر الموت والحياة في عالم النبات، ولكن الذي أعلمه أنه لا يخلد شيء في الطبيعة، فكل حيّ مصيره إلى الموت، سواء أكان ورداً أم كان شوكاً.

وكيف كان الأمر فقد نفعني الشاعر الإنكليزي، إنه نقلني من عالم النبات إلى عالم الحيوان، فإذا كان الورد يموت والشوك يعيش في عالم النبات، ففي عالمنا، عالم الحيوان الناطق، ناس كثيرون مثل الورد يموتون وناس كثيرون مثل الشوك يعيشون، ولست أريد بالموت حقيقة الموت وبالحياة حقيقة الحياة، وإنما أريد المجاز بذلك،

فأنا استعمل في هذا الباب اللغة التي استعملها الشاعر الإنكليزي، إني ألجأ إلى أبواب البديع، وإذا كان الشاعر يجهل السر في حياة الشوك وموت الورد في عالم النبات، فلست أجهل هذا السر في حياة رجال يشبهون الورد، وموت رجال يشبهون الشوك في عالمنا.

إذا راقبنا مجتمعنا في أغلب الأحوال وجدنا الناس فيه فئتين: فئة تموت وهي فئة الأقوياء الذين يشبهون الورد، وفئة تعيش وهي فئة الضعفاء الذين يشبهون الشوك، أما الأقوياء الذين يموتون، وأعني بهم أقوياء الأخلاق فإنهم يترفعون عن أخلاق الناس الذين يشبهون الشوك في حياتهم وأساليبهم، فلا يصانعون ولا يداهنون ولا يكذبون ولا يدجلون، ولكنهم يعيشون في أبراج مشيدة، يسخرون من الأساليب التي يلجأ إليها رجال الشوك، ويستخفون بالذين رفعوا من ذكر هؤلاء الرجال، فهم يستصغرون ما يستعظمه صغار الناس، ويستعظمون ما يستصغرونه، فالجاه الذي يصانع رجال الشوك من أجله ويداهنون ويكذبون ويدجلون إنما هو ظل زائل في نظرهم، وما مثله إلا كمثل الزبد الذي يذهب جفاء، فهم لا يهتمون إلا بما ينفع الناس ويمكث في الأرض، من أجل هذه العزلة وهذا الترفع نظن أنهم يموتون والحقيقة أنهم يعيشون، ولكنهم يعيشون في أخلاقهم المنيعة التي أغنتهم عن جاه كاذب وعن كل سلطان زائف، إنهم خالدون!

وأما الضعفاء الذين يعيشون، وأريد بهم ضعفاء الأخلاق فإنهم يتلبسون بمجتمعهم، فإذا احتاجت حياتهم إلى مصانعة صانعوا، وإلى مداهنة داهنوا، والى كذب كذبوا، والى تدجيل دجلوا، فيأنس بهم مجتمعهم ويأنسون به، ويألفهم ويألفونه، وينبسط إليهم وينبسطون إليه، فلا يطرحهم المجتمع، وإنما يرفع من ذكرهم، فتقبل الدنيا عليهم وتضحك لهم وتغرقهم في مكارمها، فنظن أنهم يعيشون، والحقيقة أنهم يموتون لأن حياتهم ضرب من الباطل، وللباطل جولة ثم يضمحل!

لسنا نشهد في هذا الزمن وحده موت رجال الورد وحياة رجال الشوك، فالظاهر أن مثل هذا الأمر شائع في كل زمن، أفلم يقل المتنبي في عصره:

أيموت مثلُ أبي شجاع فاتكٌ ويعيش حاسدُهُ الخصيُّ الأوكعُ

وفي كتب التاريخ أن أبا شجاع هذا كان كريم النفس، بعيد الهمة، شجاعاً كثير الإقدام، ولذلك قيل له: فاتك المجنون، كان رفيق كافور في خدمة الأخشيد، فلما مات مخدومهما وتقرر كافور في خدمة ابن الأخشيد أنف فاتك من الإقامة بمصر كي لا يكون كافور أعلى رتبة منه، ويحتاج أن يركب في خدمته فانتقل إلى الفيّوم، فاعتل بها جسمه، فمات.

وهكذا نجد أن الشعراء يتلاقون في كل زمن، فما قاله الشاعر الإنكليزي قاله شاعرنا العربي، فالرجال الذين يشبهون الورد كانوا

يموتـون في زمـن المتنـبي، والرجـال الذيـن يشـبهون الشـوك كـانوا يعيشون، ولو بُعِثَ المتنبي في عصرنـا هـذا وجـال بـين ظهرانينـا لـرأى اليوم ما رآه مـن ألـف سنة، ثمَّ خـراب الدنيـا علـى أيديهـم يعيشـون، لـو بعـث في مدفنـه لـرأى الذيـن يشـبهون فاتكـا أبـا شـجاع في كـرم النفس يموتـون!

فلا يستغربَنّ أحد منا بعـد هـذا كلـه أن يـرى في عـالم الإنسـان مـا رآه الشـاعر الإنكلـيزي في عـالم النبـات، لا يسـتغربنَّ أحـد منـا أن يرى:

ورداً يمـــــــوت   وشـــــوكاً يعيـــــش!

الأسبوع العربي
شباط ١٩٦٤

لماذا أحب لبنان؟

انقطعت عن الكتابة من أربعة أشهر. ولا حاجة بي إلى ذكر السبب في هذا الانقطاع. ومن أيامٍ دفع إليَّ صديقي زهير ماردیني مجلة" الأسبوع العربي" فاطلعت على مقاله الحي في ميونيخ كما اطلعت على طائفة من مقالات المجلة.

ولست أتردد في الاعتراف بأني وجدت في هذه المقالات أشياء ما ألفت وجودها في بعض المجلات. وجدت مقالات لم يتوخّ أصحابها عرض معلوماتهم لمجرد الظهور وإنما عرض هؤلاء الكتّاب أفكارهم ممزوجة بتجاربهم الخاصة وبمشاهداتهم وبشعورهم، فهم لم يجروا على ما يجري عليه بعض كتّاب المجلات، فلم يشحنوا مقالاتهم بأفكار يلخصونها من بعض الكتب، ولم يبعدوا عن واقع الحياة في الذي يكتبونه، فإذا عالجوا فكراً من الأفكار عالجوه من أيسر الطرق ومن أقربها ومن واقع الأمور.

لقد حركت فيَّ مجلةُ " الأسبوع العربي" ميلاً إلى الكتابة في وقت كادت القريحة فيه تجف وكاد الطبع يبلد والحس يموت، وأول شرط من شروط الكتابة أو الشعر انبساط النفس فإن انقباض الصدر يعمي العيون، ولست أرى في الصدور الا انقباضاً...

لم يخطر ببالي في تحريك نشاطي إلا لبنان وأولية اتصالي به، لم تخطر ببالي إلا طبيعته وحريته وثقافته.

ما كدت أفتح عيني على الدنيا حتى وجدتني في مدرسة الأباء العازاريين في دمشق بمحضر من رهبان من الموازنة، أتخرج عليهم في الأدب والصرف والنحو والبيان، فلا تزال أسماء أولئك الرهبان تملأ سمعي، فمنهم أبونا مكاريوس... أبونا ميخائيل... أبونا الجعيتاوي وغيرهم وغيرهم، ولا تزال الألقاب التي كنا نلقبهم بها على طرف لساني: طفاية... أبو هرموش ونحو ذلك... وإذا كنت آسف على ذكر شيء فإني آسف على أن أولئك الرهبان لم يكن نصيبهم من الأدب والبيان مقدار نصيبهم من الصرف والنحو، فكانت بضاعتهم من الأدب قليلة، ولئن انتقلوا من الدنيا إلى الآخرة، فما ينبغي لي أن أنسى فضلهم علي كيف كانت الحال، فهم أول الذين قوموا من بياني، ثم جعلوا لي صلة بلبنان قبل أن أعرف بقعة من بقاعه.

ولما خرجت من مدرسة العازاريين وذلك سنة ١٩١٣ انصرفت إلى المطالعة الخاصة فكتبت في مجلة «المهذب» التي كان يصدرها في زحلة الأب الكفوري، وكانت هذه المجلة في مقدمة المجلات في تلك الأيام، وكم كان فرحي عظيماً وأنا حدث السن بقراءة اسمي إلى جنب أسماء كتاب مشهورين في ذلك العصر، أمثال الشيخ إبراهيم الحوراني وخليل سعد وغيرهما.

لقد مكنت المساهمة في إرسال بعض المقالات إلى مجلة «المهذب» حبي للبنان وصلتي به، ثم وقعت الحرب الكبرى الأولى فتعطلت «المهذب» وانصرفت عن الكتابة، وكان الناس سكارى، وما هم بسكارى، ينتظرون خاتمة الحرب ومعرفة المصير.

انطفأت نار الحرب الكبرى الأولى فكان كل املي في الفرص التي كنت أنتهزها أن أقضي أياماً في لبنان، فكانت «عاليه» أو «صوفر» منتهى الأمال وكنت أجول في أنحاء لبنان حتى أنست بأكثر وجوهه، كنت أرى لكل بقعة من بقاعه سحراً خاصاً، في «عاليه» ضوضاء المدن. وفي «صوفر» هدوء الصيف، وفي الغابات الممتدة من «فالوغا» إلى «ضهور الشوير» وحشة الغابات، وفي «الأرز» رهبة الطبيعة، وغير ذلك من المعاني المختلفة على اختلاف قرى لبنان وأوديته وجباله.

هذا التمتع من سحر لبنان قد زاد في حبي إيّاه وتعلقي به، ولقد ضاعف من هذا الحب وهذا التعلق اتصالي بفريق من أدبائه، بعضهم ذهب إلى رحمة ربه وبعضهم مد الله حياته.

لا أنسى جلوسي في مقهى من مقاهي «ضهور الشوير» وتعرفي إلى سعيد عقل، وكان في ريعان شبابه، يذوب رقة ونعومة فيشبه «الدراقن الزهري» في دمشق وهو أطيب أنواع الفاكهة.

كان سعيد يسليني بأحاديثه الحلوة وباستشهاده بأدب الغرب وببعض أدبائه، من تلك الأحاديث قوله: نحن في لبنان لا نفهم

الوطنية كما تفهمونها، قلت له: كيف تفهمونها وكيف نفهمها؟، قال: إنكم في دمشق تفهمون الوطنية على أسلوب فخري البارودي الذي إذا وقع نظره على أحد بادر إلى تقبيله وعناقه، أما نحن فإنا نفهم الوطنية على وجه آخر، إنها في نظرنا ثقافة وفكر قبل كل شيء!

لا مجال إلى إعادة مناقشتنا في هذا الباب، فقد كنا في سهرة تستلزم الهزل حيناً والجد حيناً، سقى الله تلك الليالي.

أما في بيروت فما كنت أزورها من حين إلى آخر دون أن أزور مجلة" المعرض" لصاحبها الأرسطوقراطي المصقول ميشيل ذكّور، كانت المجلة ملتقى أدباء تلك الأيام أذكر منهم خليل تقي الدين وميشيل أبو شهلا وإلياس شبكه وغيرهم وغيرهم.. وما أظن أن أدباء بيروت في هذا اليوم يهتمون بالأدب اهتمام إخوانهم به في الماضي.

أما الأديب نسيج وحده في سويدائه وسخريته وكثرة اطلاعه فقد كان عمر الفاخوري رحمه الله أوسع رحمة.

قويت صلتي بأدباء لبنان من تلك الأيام كما قويت بشعرائه وفي مقدمتهم الأخطل الصغير وأمين نخلة وقبلان الرياشي، ولقد وقفت طائفة من شعري على لبنان، وفي جملة القصائد قصيدة نشرتها في" البرق" لصاحبه الأخطل الصغير مدّ الله حياته وخفف آلامه، كان لها بعض الصدى.

من تلك الأيام أحببت لبنان وصادقت بعض أدبائه وشعرائه، ثم بليت الأيام وبليت الصداقات وأخذ كل واحد يلهو بنفسه ويفكر فيها. ولكن الصلة التي لا تبلى على وجه الدهر إنما هي الصلة الروحية، فإذا لم يبق من كل ما ذكرت إلا ما يشبه الأحلام، فقد بقي شيء أخلد من الأحلام، وأعني به ذكرى إمامين من أئمة الأدب في العصر الحديث، لا تفنى صلتي الروحية بهما وهما: الشيخ إبراهيم اليازجي وأحمد فارس الشدياق. أما الأول فقد عرف بعنايته بصقل العبارة البالغ. وأما الثاني فلست أعرف عبقرية أعظم من عبقريته في القرن التاسع عشر.

ولقد لخصت هذه العبقرية في كتابي: أحمد فارس الشدياق، أرجو أن أجد سبيلاً إلى نشره قريباً.

هذه هي جملة من الأسباب التي حملتني على محبة لبنان من أول العمر، وإذا لم يجد فيها القارئ الكريم مقنعاً فأرجو أن يجد في تضاعيفها إيماني بسحر الطبيعة في لبنان وبحلاوة الحرية وضياء الثقافة في ظله الظليل.

الأسبوع العربي
آب ١٩٦٣

الحياة المسلوقة

من واشنطن

لي في «صوت أميركا» في واشنطن بعض معارف من لبنان وسورية، وقد دعاني فريق منهم إلى الغداء في مطعم في بناء دار الإذاعة نفسها، فانحدرت معهم إلى «الكافتريا»وهو اسم المطعم الذي يخدم الإنسان فيه نفسه، فوجدت الناس رجالاً ونساء قد لزموا صفوفهم حتى يصلوا إلى معارض الأكل، حيث يختار كل واحدت منهم ما يشاء من الألوان، ويحمل ما يختاره في صينية ويذهب به إلى مجلسه، وقد اقترح عليَّ الإخوان أن ألزم مجلسي وأن لا أحمل نفسي مشقة اختيار الأكل ففعلت، وبعد دقائق جاءوا بصحونهم وجلسوا ليأكلوا واعتذرت لأني لا أهضم طبخ الأميركان.

في أثناء الحديث وقع نظري عَرَضاً على ألوان الأكل، فوجدت في بعض الصحون بيضاً مسلوقاً وبطاطا مسلوقة وخضرة مسلوقة، وقد كنت أفضي إلى الإخوان برأيي في الحياة الأميركية، فقلت هم: ما أشد وجه الشبه بين أكلكم وبين حياتكم، إن أكلكم على ما أرى كله مسلوق، وإن حياتكم كلها مسلوقة، فما كدتم

تدحرجون الأكل في أفواهكم حتى قلتم لي: اعذرنا نريد أن نرجع إلى العمل فاسمح لنا بأن ندلك على الطريق.

لقد دلوني على المخرج من دار الإذاعة فودعتهم وانصرفت إلى مطعم عربي ألفته وهو: مطعم بغداد.

أفضت كثيراً على السفرة في الاعتراض على الحياة، اعترضت على هذه الحياة التي لا يعرف فيها صاحبها راحة ولا تسلية الأميركيّة، فكان الإخوان يوافقون حيناً ويخالفون حيناً، اعترضت على هذه الحياة التي تتعب العقل والفكر، حتى أصبح الإنسان فيها آلة من الآلات، فهو يشتغل من الصباح إلى الظهر فيسلق غداءه سلقاً، ثم يعود إلى العمل، فما يكاد يخرج منه حتى يسرع إلى العشاء في بعض المطاعم، فإذا فرغ من العشاء ذهب إلى السينما أو إلى النوم، فلا فراغ يتحدث فيه إلى إصدقائه، ولا فراغ يخلو فيه إلى أهله، فكأن الدنيا كلها عمل، وكأنّ البدن ليس له حق على صاحبه، وكأنّ الروح ليس لها نصيب من المتعة، فالأحاديث أكثرها يتعلق بالمادة، بالأرقام، بالدولارات. فالدنيا كلها بيع وشراء، ربح وخسارة أخذ وعطاء، فلا نادرة حلوة تسلي القلب، ولا طرفة حلوة تسلي الروح، هذه هي الحياة في أميركة، ما خلا ليالي السبت والأحد، فإن الناس يأخذون فيها نصيبهم من اللذة، كل على قدر إمكانه.

وقال لي أحد الإخوان: ولكنك إذا سألت الأميركان عن رأيهم

في هذه الحياة وجدتهم مسرورين بها، راضين عنها قلت له: لا غرابة في ذلك، فإني أعرف بعض الفلاحين في بلادنا وأخالطهم من زمن بعيد، يذهب أحدهم في طلوع الشمس إلى المراعي أو إلى الحقل ومعه أربعة أرغفة من الخبز وبضع حبات من الزيتون، ثم يعود في المساء ويتعشى وعشاؤه الخبز والبطاطا، أو الزيتون أو البصل أو البرغل، فلا يكاد يفرغ من عشائه حتى ينام هو والدجاج في وقت واحد، ثم يستفيق في مطلع الفجر وهو راض عن حياته، مسرور بها لأنه لا يعرف غيرها، ولم يَبْلُ نمطاً آخر من الحياة، وهكذا الأميركان الذين رضوا بحياتهم على هذا الشكل، وهم لو جربوا نوعاً آخر من أنواعها فيه بعض المرح والانبساط لعدلوا رأيهم في حياتهم المتعبة.

تعشيت مرة في مطعم أصحابه من قرى فلسطين فوجدت على سفرة أربعة من الأميركان وأربعاً من الأميركانيات، فشربوا ما شربوا من النبيذ، وأكلوا ما أكلوا من اللحم، وأخذوا يتساقطون الأحاديث، وإنهم لكذلك إذ جاءت عائشة صاحبة المطعم بالدف والدربكة وأخذت تنقر على الدف مرة، وعلى الدربكة مرة وقام إبراهيم وهو فتى أميركي من قرى فلسطين ورقص الدبكة، على نقرات الدف والدربكة فاغتنمت هذه الفرصة لأرى تأثير ذلك في الأميركان، والأميركانيات، فما كان الرجال والنساء يرون رقص الدبكة ويسمعون نقر الدف حتى قاموا إلى وسط المطعم وأخذوا

يرقصون الرقص الذي لا أقدر على وصف حركاته، وبينهم امرأة أميركية غاية في الجمال وحسن القوام والرشاقة، كادت تخرج من نفسها من كثرة المرح والسرور. ثم هدأ الدف وهدأت الدبكة وانصرف كل واحد إلى سبيله.

هذه الصورة دلتني على مقدار خنق الأميركان في جوهم، فهم لا يجدون متنفساً إلا تنفسوا منه، وما تفنن هذه السيدة الأميركية في رقصها إلا تعبير عن تنفسها، فالأميركان راضون بحياتهم لأنهم لا يعرفون غيرها، أما إذا ألفوا نوعاً آخر من الحياة فيه نقر الدف ورقص الدبكة تعوّذوا بالله من هذه السنين التي يقضونها في حياة مسلوقة.

تقصيرنا في الدعاوة

وقعت من يومين على كتاب إنكليزي اسمه: بقاع غريبة وناس طيبون، صاحبه: وليم دجلس، وقد كان قاضياً في المحكمة العليا في الولايات المتحدة، زار هذا الكاتب من ست سنين بلاد فارس والأردن ولبنان وسورية والعراق وإسرائيل واليونان وقبرص والهند ودوَّن نتائج رحلته.

قرأت بعض مقاطع من هذه الرحلة، ولا سيما المقاطع المتعلقة بسورية وإسرائيل فتبين لي بعد القراءة مقدار تقصيرنا في الدعاوة، قدم القاضي «دجلس» جبل الدروز واجتمع إلى سلطان باشا الأطرش ومدح له الدروز وذكر له شهرتهم في أميركة بشجاعتهم ومهارتهم في الحروب فرد عليه الباشا وقال له في جملة ما قال: الدروز يحتاجون إلى معرفة الأساليب الحديثة في الزراعة والاستغلال، إن محاصيلهم جيدة، ولكن تجار دمشق ينهبونهم.

وهكذا خلدت في كتاب شاع في أميركة صفة من الصفات السيِّئة لصقت بتجار دمشق وهي النهب، من غير أن يعلم الباشا بما نسب إليه ومن غير أن نعلم أصحيح ما نسب إليه.

وكما جال الكاتب في جبل الدروز فقد جال في دمشق وبعض قرى الغوطة، ولئن وصف بيت أسعد باشا العظم، فقد وصف بعض قرى الغوطة، فلم يجد في بيت الفلاح إلاّ حفرةً مكشوفة يجري إليها الماء القذر من البيت، ويجتمع فيها الذباب، ويحمل الحوش روائح المعزي والحمير.

وهكذا يتصور الأميركان غداً قرى الفلاحين، فلا تعلق بعيونهم وآنافهم إلا صور المعزى والحمير والذباب وروائح الماء القذر.

وفرغ الكاتب من هذا التصوير فأشار إلى شتائم الناس فقال إن الإنسان يسب بيت خصمه ويسب دينه ويسب دين أخته ويسب دين أخت أخته.

وفي الكتاب صور كثيرة ولا سيما الصور المتعلقة بالمرأة المسلمة، فلا يعرف الأميركان أن المرأة المسلمة تطورت وأخذت تدرس في الجامعة وتُمرِّض في المستشفيات، وتزاول الأعمال العامة.

بعد هذا كله قرأت بعض الكلام على إسرائيل فقد أفاض الكاتب في وصف دورها الحديثة ومزارعها الحديثة، ومخابرها الحديثة، وتكلم على المحكمة العليا حيث دعي إلى جلسة من جلساتها، وتكلم على مجلس النواب، وأشار إلى روح المسامحة في إسرائيل، حيث يستطيع اليهود أن يدخلوا في المذهب البورجوازي أو في الفلسفة الاشتراكية، ويمعنوا فيها أكثر من السوفيت.

لا شك في أني ألمت كثيراً بعد هذه القراءة، ولكن هل الذنب

ذنب الكاتب وحده أم هو ذنبنا، ليس بمفروض على دول ما وراء البحار وعلى كتابها أن ينظروا إلينا نظرة حسنة، فإذا نحن لم ننصف أنفسنا فلا ينصفنا أحد في العالم، أفما كان يجب علينا عند قدوم قاض مثل هذا القاضي أن نتصل به وندعوه إلى جامعتنا ومجمعنا ومتحفنا وبعض مدارسنا ومعاملنا وبعض قرانا، ونشرح له تطورنا ونهضتنا حتى ترسخ في نفسه صورة حسنة من صورنا ينقلها إلى بلاده، أنّا لم نفعل شيئاً من ذلك. فقد حاول الاجتماع إلى حسني الزعيم فلم ينجح، واجتمع إلى محسن البرازي الذي ألح عليه في مساعدة سورية على تجهيز جيشنا من قبل الولايات المتحدة. ووعده أن سورية لا تستعمل هذا السلاح في محاربة إسرائيل ولكنها تدخره لتكون قوية في وجه روسية، حتى قال الكاتب: إني لم أشعر بأمانة هذا الرجل.

إننا مقصرون في حقنا، نقتصر على ما يعبر عن شعورنا القومي من مظاهرات واحتجاجات واضطرابات، ونهمل تحقيق هذا الشعور في البلاد التي يرتع فيه اليهود، أفلا يجب على الجامعة العربية أن تكون لها مراكز دعاوة في بعض العواصم، ولا سيما في باريس ولندن وواشنطن، حتى إذا ظهرت كتابات تستوجب التصحيح بعثنا إلى هذه المراكز بما ينبغي في هذا الشأن؟ الأميركان في أميركة لا يحبون اليهود ولكنهم يخافون، وهم لا يسمعون عن فلسطين إلا ما ينشره اليهود، أما العرب فلا يسمعون لهم صوتاً.

عمر الفاخوري... من ثلاثين سنة

من ثلاثين سنة لم يستفض في طبقات الأدباء ما استفاض في هذا اليوم من كتب كبار الكتاب الغربيين، فإذا نشر أحد أدبائنا رأياً لكاتب غربي، أو اقتبس شيئاً عن مذهب من المذاهب كانت الأذهان قليلة الاستعداد لقبول هذا الرأي، أو فهم هذا المذهب، فلهذا كان يستعصي عليها إدراك هذه الآراء والمذاهب، وقد كانت كتابات الأستاذ عمر الفاخوري في تلك السنين موضع الاستغراب، كان يكتب مقالات في جريدة من جرائد دمشق، أذكر أن طائفة من أدباء ذلك العصر كانوا لا يفهمون من مقالاته إلا قليلاً، فكان كل واحد يسأل الآخر: هل فهمت ما كتبه عمر، ولم أستطع في تلك الأيام أن أحيط بالسر في قلة الفهم أو في ضعفه، أما اليوم فلا نستغرب شيئاً من ذلك، فإن الناس قليل استعدادهم لفهم الآراء الحديثة أو الغريبة، ولما شرعت في ترجمة طائفة من فصول «أناتول فرانس» وذلك من ست وعشرين سنة جاءني عمر وهنأني وفرح بهذه الترجمة ملء قلبه.

من ذلك الحين اشتدت الصداقة بيني وبين عمر، فإذا انحدرت إلى بيروت أنا وفريق من إخواني في دمشق وجب علينا أن نجتمع

إليه وأن نسهر ونمرح ونعبث وما شابه ذلك وإذا جاء عمر إلى دمشق وجب عليه أن يسأل عنا وأن نجتمع ونتحدث.

لا تزال صورته تملأ عيني وذهني، لم أقرأ في ساعة من الساعات المرح على وجهه، كان يفيض في بعض الأوقات في أحاديثه، وكان يغلب عليه السكوت في بعضها، وما عرفت رجلاً أحب الكتب مقدار حب عمر لها، وقديماً ضرب المثل بالجاحظ وبغيره في الميل إلى القراءة أما هذا العصر فإن اشتهر القراءُ فيه فلا شك في أن عمر الفاخوري في مقدمتهم، إذا لقيته بعد غياب طويل أو قصير كان يسألني هذا السؤال: كيف صحتك؟ فإذا اطمأن إلى حسنها سألني: قرأت كتاب كذا.. أو هل قرأت مقالي، فقد غرق في الكتب والمطالعة والأفكار، هذه بضاعته، وهذا نصيبه من الدنيا، فكأنه لا يعيش في هذا العالم الذي نعيش فيه، ولم أره مرة دون أن يكون الكتاب في يده أو في جيبه، سواء أكان في المقهى أم في الشارع أم في المقصف، وقد خلقت له المطالعة أفكاراً كثيرة كان يلهو بها في حياته ويعيش وإياها، ولكن غلب عليه من هذا كله أمران: النقد والسخرية، واستبان أسلوبهما في كل ما كتب، فالقارئ لا يفرغ من قراءة ما يكتبه عمر الفاخوري دون أن يرى في كتاباته أثر النقد والسخرية، ولا ريب في أن له فيهما فناً خاصاً، وهذا غير قليل في الأدب، إن روحه مطبوع على النقد ومزاجه مفطور على السخرية، وهذان الأمران يحتاجان إلى أنواع من التراكيب لا يتقنها أي كاتب كان.

يتكلم عمر على الحرب فيقول: حتى أدركتنا هذه الحرب العالمية الثانية ولا أدري ببركة أي دعاء أو أي صلاة، ففي هذا البيان شيء سمه ما شئت، سمه خفة روح.. أو سخرية، فالمهم أنه لا يلجأ إليه أي كاتب كان، ومن هذا الشكل قوله في رجل في الانتخابات: سمعته يذكر جبينه ولا أدري لأية مناسبة أخذ يسميه الجبين الناصع، ثم يضرب بكفه على جبهته، وكانت بيضاء حقاً لسبب بسيط،هو أن صاحبنا ليس بأسمر اللون.

قد يظن بعض الظانين أن هذا النمط من البيان يخرج عن حد الطبع، ولكن الذين يعرفون عمر الفاخوري يعلمون أنه خال من كل كلفة، فلا كلفة في حديثه ولا في جلسته ولا في مشيته ولا في لبسته، وكذلك فنه فلا كلفة فيه، قد خلق هذا الفن كما خلق صاحبه، خلق للنقد والسخرية، ورزق صاحبه ما يحتاج إليه من سعة في الاطلاع وخفة روح في التراكيب، فإذا بُعث عمر الفاخوري هذا اليوم فلا يجد في الأدباء ما وجده من ثلاثين سنة، لأنهم أخذوا يشعرون بقوة النقد وسلطان السخرية.!

مع أناتول فرانس
في كتاب جديد

ليس من الوفاء في شيء أن أتردد طرفة عين في تقديم هذا الكتاب، والسبب في ذلك أني أرى في صاحبه ولعاً بالأدب لا يعدله ولع، فقد أخلص المحبة للأدب وعبد هذه الصناعة من أربعين سنة، حتى شغف بكل حسن من محاسنها وتعلق قلبه كل آية من آياتها، فلا يرضيه من هذه الصناعة إلا سمو آفاقها، ولا يروي غليله منها إلا التألق في مظاهرها، فهو يحب منها كل ما يميزها وكل ما يرتفع بها من الأفق الأدنى إلى الأفق الأعلى، وخلاصة الأمر أنه يذوب في عبادة الأدب.

من أجل ذوبانه في هذه العبادة توليت تقديم هذا الكتاب، فإني إذا أحببت الأدب أحببت كل الذين يحبونه معي، وإذا حنوت على هذا الأدب حنوت على كل الذين يحنون عليه، وإذا نزعت إلى صونه نزعت إلى كل الذين يصونونه، والأستاذ وجيه بيضون في مقدمتهم.

ولكن أهذا هو السبب وحده الذي رغبني في تقديم هذا الكتاب؟ إني أرى إلى جانبه سبباً آخر وأريد أن أسميه سراً آخر،

فقد مهد لي مؤلفه سبيلاً إلى تذكر الصبا، فإني لما قرأته طويت أربعين سنة من عمري، فرجعت القهقرى، وأخذت أنعم في هذا الرجوع بأيام الشباب ونضارة الشباب، ومن أين جاءت هذه النعمة؟ إني ما كدت أفتح عيني على الدنيا بعد زمن الدراسة حتى اهتديت إلى كاتب كان له الأثر الأبلغ في ذوقي وفهمي وشعوري، في نفسي كلها، وإذا كنت قد ملأت ذهني في أدبنا من بيان ابن المقفع والجاحظ فقد ملأت ذوقي وفهمي وشعوري من عبقرية (أناتول فرانس)، فأضفت إلى سحر ابن المقفع والجاحظ وضوح لغة (فرانس) وصفاء فكره وصحة نظره إلى أمور الدنيا، فهو الذي انفرد من أربعين سنة بتصفية ذوقي وتهذيب شعوري، وإذا أردت أن ألخص رأيي في هذا الكتاب الذي ملك علي كل ناحية من نواحي نفسي قلت فيه إنه أسكرني بلغته وصوره وأفكاره، فكلما شعرت بانقباض في الصدر رجعت إلى أحاديثه في الأدب وإلى رواياته فصار الانقباض إلى انبساط وابيضت الدنيا في عيني فلا أرى فيها إلا روعة وجهها ولا أسمع فيها إلا رخامة أنغامها، فأقف عند كل جملة من جمله وكأني غارق في حلم من الأحلام، كأني مرة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، ومرة في سماء صافية لا تطاولها سماء، فأستمر على هذه الحال من الحلم حتى يصح ذهني ويستفيق شعوري، وإذا آثار الكآبة كلها كأنها دخان يطير في السماء، وإذا الدنيا تضحك لي جنباتها، فكأني في هذا الربيع الطلق الذي كاد يتكلم.!

أفلا أرى بعد هذا كله أن إقدام الأستاذ وجيه بيضون على إدخال طائفة من حياة «أناتول فرانس» ومن أدبه ومن فنه ومن سخريته ومن أفكاره، أفلا أرى بعد هذا كله أن إدخال هذه الآثار في أدبنا حسنة من الحسنات التي لا ينبغي لي أن أهمل التنويه بها؟.

كنت أريد أن أتبسط في الكلام على هذه الآثار أو على فئة منها، كنت أريد أن أتبسط في الكلام عليها لا على سبيل التعريف بها، فإني أعجز من أن أعرّف بآثار كاتب من طبقة «أناتول فرانس» ولكني كنت أريد أن أتوسع في الكلام عليها، لأني أجد في هذا الكلام لذة دونها كل لذة، فأنا إذا تكلمت عليها أرضيت رغبة في نفسي، لأني أتكلم على ما يسر خاطري ويبهج قلبي ويفرح نفسي، والإنسان مولع عادة بالإفضاء بما يشعر به من سرور وبهجة وفرح، الإنسان لا يحب أن يكتم في أثناء قلبه شيئاً من هذا كله، على أني إذا لم أنصرف في هذه المقدمة اليسيرة إلى الكلام على كل ما أردت الكلام عليه فقد كفاني الأستاذ وجيه بيضون مؤنة هذا الكلام، فقد تتبع«أناتول فرانس» في دقائق حياته وجلائلها، وراقبه في محاسن فنه وفضائله، ونخل جملة غير قليلة من آرائه في كل شيء، في الأدب، في الفن، في الأخلاق، في السياسة، في المرأة، ماذا أقول، في الحياة كلها؟ بحيث كانت الصورة التي عرضها في كتابه صورة شافية، فإن الاستقصاء في تصوير «أناتول فرانس»، في الدلالة على مواطن عبقريته كلها، في المجادلة في هذه المواطن، إن الاستقصاء في هذا كله لا يتم في فصول ولا في كتاب، ولكن الأستاذ وجيه بيضون كان حاذقاً في عرض الصورة، عرض

منها ما ينقع الغليل، بحيث إذا وقع أي نظر عليها أدرك هذا النظر صاحبها لأول وهلة فلا يحتاج إلى المزيد.

لست أهتم في سيرة «أناتول فرانس» بشيء من آرائه أو تلوناته أو مناقضاته، وإنما الذي يهمني من هذا الكاتب العظيم فنّه في المقام الأول، فما عرفت أوضح بياناًمن بيانه، ولا أصفى صوراً من صوره، يلبس فكرته ما يلزمها من اللباس فلا يزيد هذا اللباس ولا ينقص، وقد يظن القارئ إذا اطلع على صيغة «أناتول» أن من السهل أن يصيغ مثلها ولكنه إذا أمسك بالقلم أدرك عجزه فطرح القلم واعترف بعجزه في البلاغة، لا في التحذلق والتقعر.

وكما اهتممت بفن «أناتول فرانس» فد اهتممت من جهة ثانية بنظرته إلى الحياة، فهو ينظر إليها من محاسن وجها، فكل شيء يضحك في بيانه، فلا ترى في تضاعيف هذا البيان أثراً من آثار عبوس الحياة وتجهمها، فالذين يريدون أن يعيشوا، وأن يضحكوا في عيشتهم، الذين يريدون أن يلقوا وراء الظهر آلام الحياة وأحزانها فليرجعوا إلى كتب «أناتول فرانس»، فإنهم يجدون فيها الحياة في أنضر صورها، وويل للذين لا يصورون في أدبهم إلا مقابح الحياة، فما سلاح «أناتول» في وجوههم إلا السخرية وقد تكون سخريته في بعض الأحيان سخرية الفلاسفة، أي سخرية المسامحة واللطف، كما تكون جهنم في بعض الأحيان أخف من هذه السخرية، فإني لا أقرأ مقاله في رواية «زولا» الأرض إلا أشفقت على «زولا» المسكين.

وضوح في البيان وصفاء في الصور وابتسام في الحياة وسخرية في هذه الحياة، خفيفة حيناً وشديدة حيناً، هذا ما ملكني من «أناتول فرانس» أما الذين نقدوه فقالوا فيه إنه يعيش على سطوح الأفكار، فلست أدري ما الذي أغراهم بالتحامل عليه، قضى «أناتول فرانس» حياته كلها بين الكتب، عاش في هذه الكتب، فهو يقرأ الكتاب فيهتدي إلى أبرز خصائصه، ثم يلخص هذه الخصائص فيضمنها كتاباته بعد أن يدخل فيها طائفة من آرائه الخاصة، فهو لا يعيش على السطوح وإنما يعيش على الهضاب وعلى أعلى الهضاب، ومهما يقل القائلون فيه فحسبه ما قال فيه أحد الكتاب صباح وفاته:

إنه ثبت اللغة!

فليس بقليل أن يثبت رجل من رجال العبقرية اللغة في عصر تكاد تصبح فيه هذه اللغة كريشة في مهب الريح.

وإني لا أطرح هذا القلم من يدي قبل أن أشكر للأستاذ وجيه بيضون فضله في التعريف بكاتب خالد على وجه الدهر، أقل ما يقال فيه إنه ثبت لغة قومه.

ما أشد حاجتنا إلى كاتب من طرازه يثبت لغتنا في عصر تكاد هذه اللغة تفقد فيه رونقها وتضيع فيه عبقريتها.

المثل الأعلى

تبين لي في خلال السنين التي كنت أرقب فيها سير الجامعة أن هم الطالب إنما هو الحصول على شهادته بأقل ما يكون من الجهد.

إني لا ألوم الطالب على همه هذا وقد أقول له: الحق بيدك، لقد اشتدت عليك تكاليف الحياة في عصرنا، فملت إلى الاختصار في كل شيء، في الزمن وفي العناء حتى تظفر بشهادتك التي تمهد لك سبيلاً إلى الاندفاع في مجالات الحياة.

هذا أمر أفهمه حق الفهم، ولكن الأمر الذي لا أفهمه أن يقتصر الطالب على التفكير في الشهادة وحدها، دون التفكير في شيء آخر يسمونه: المثل الأعلى!

إذا كان الطالب من وراء حصوله على الشهادة إلى الوصول إلى كثير من المال يعيش به عيشة رغداً فإني أقول له: لقد ضللت السبيل، أن هذه الشهادة لا تبلغ بك درجة الغنى، اضرب بعينك حولك، أفتجد لكثير من أصحاب القصور والمزارع والمتاجر شهادات يحملونها، فإذا كنت تريد الوصول إلى المال وحده فخير

لـك أن تختـار عمـلاً غـير عمـل العلـم أو الأدب. أمـا إذا كنـت تؤمـن بحريـة التفكـير واسـتقلال العقـل، وكنـت لا تجـد نعمـة علـى وجـه الأرض أرفـع مـن نعمـة هـذا المثـل الأعلـى، فـلا يكـن همـك الظفـر بالشـهادة وحدهـا.

إن وطنـك لم يصـل إلى مـا وصـل إليـه ممـا تقـع عليـه عينـك إلا بسـبب تجردنـا مـن المثـل الأعلـى، ومـن المـؤلم أن الجامعـة الـتي تقلـب عـادة في العـالم أوضـاع الحيـاة بحذافيرهـا لم تسـتطع حتـى اليـوم أن تقلـب وضعاً مـن أوضاعنـا، فـإذا كـان طـالب الجامعـة حريصـاً علـى أن يكـون وطنـه شيئاً في هـذه الدنيـا، فليسـلك سـبيلاً جديـدة في جامعتـه، أمـا هـذه السـبيل فمـا هـي إلا الفنـاء في حريـة التفكـير واسـتقلال العقـل، فـإذا خـرج مـن الجامعـة حـر الفكـر، مسـتقل العقـل، قـدر حريـة أفكـار النـاس واسـتقلال عقولهـم حـق قدرهمـا.

أمـا إذا اسـتمر الطـالب في حشـد ذهنـه للحصـول علـى الشـهادة دون مثـل أعلـى في الحيـاة فـإن وطننـا سيسـتمر في معانـاة أزمـة في رجالـه، وقـد تطـول هـذه الأزمـة حتـى تخلـق الجامعـة صنفـاً مـن الطـلاب يؤمنـون بـالمثل الأعلـى في الحيـاة والاسـتقلال، فـإذا انتدبهـم وطنهـم إلى سياسـته فـلا يجـد تناقضـاً في أقوالهـم وأفعـالهم!